تصوير (سامي عياد)

"ولم يعودوا..." في الأونيسكو

الضحية تقترض عيوننا كي ترى

معرض

سيمون الياس سكاف، عبد الناصر راغب شمعة، حسن أحمد الشيخ علي، محمد محمود كبارة، إلياس يوسف البيطار، كريكور قره بيت أغبوسيان، فؤاد عوض الأصفر، إبرهيم صبحي الأطرش، وعبد الله حمودان البداوي. هذه بعض من أسماء المفقودين اللبنانيين خلال الحرب الأهلية. من يذهب لرؤية معرض "ولم يعودوا..." في قصر الأونيسكو، الذي تنظمه "أمم للتوثيق والأبحاث" بالاشتراك مع أهالي المفقودين، يشعر برهبة الداخل إلى غابة. هي غابة من الأسماء والوجوه. حوالى ثلاثمئة وجه وإسم في مساحة لا تتجاوز المئة متر مربع. كأنها وجوه المفقودين تقيم تظاهرة ما للمطالبة بحقوقها. الفارق أن لا صوت لهم، فهم يستعيرون منا أصواتنا كي يتكلموا. يستعيرون كلماتي هذه على صفحة الجريدة كي يتكلموا. يستغلون عيوننا كي يرى بعضهم بعضاً من خلالها. ونحن الذين لا نملك أمام هذه الوجوه إلا الخضوع لرغبة الضحية التي أثبتت في كثرتها أنها صاحبة الرأي العام.

ثلاثمئة وجه لأشخاص ينظرون إليك. بالعيون التي تنتظر من الكاميرا أن تلتقط الصورة. يبدون واقفين في الزمن مذ قرروا أن يتصوروا. حدث أنهم ينتظرون المصور ليطلق العنان لكاميراه، ولا يزالون ينتظرون. هم هنا معلّقون على هذا الجدار في انتظار أن يطلق المصوّر كاميراه ليحررهم من عبء التحديق مباشرة الى عيوننا نحن الرائين. أتوا إلى مكان التصوير فرداً فرداً، فامتلأ الحائط بصورهم فرداً فرداً، واسماً اسماً. للأفراد أسماء، أما نحن الذين نفد زرافات زرافات، فلا إمكان لأن يكون لنا أسماء. نحن فقط لسان حال المفقودين. نحن مفقودون بلساننا، ومجهولون بهويتنا وشخصنا. هذا ما تحيلك عليه اللحظة الأولى من الدخول إلى المعرض. تتخلى عن اسمك، وعن لسانك، في حضرة الضحية، ولمصلحتها. تصبح أنت أيضاً ضحية.

لو افترضنا أن هذا المعرض كان في إحدى المدن الأوروبية، حيث لا شيء يهددك بأن تصبح ضحية، لكنت خرجت من المعرض مباشرة إلى نسيان إحساس الضحية هذا، ولكنت بدأت مباشرة تدرك أنك حي، وأن المعلقين

على جدار هم في حالة تشبه الموت. إلا أن المعضلة الكبرى هي أنك تحيا في بلد حيث لا يوجد فيه ما لا يهددك بأن تكون أنت الضحية الآتية. وهذا يضعك في مأزق. فإما تهرب من التهديد تحت وطأة الخوف، وإما تستسلم فتضع نفسك في إطار لصورة، وإما تقرر أن تصبح أنت الجاني. في بلادنا التي تَمرُّ الوقت في حرب هادئة، هذه حالنا. فنحن إما مسافرون هاربون، وإما جناة مصطفّون. وهناك المترددون الذين لم يقرروا هل يهربون أم يتحولون الى جناة. إلا أن أحداً لم يرتض بعد أن يلبس ثوب الضحية!

أنا، أنت، هو، وهي، ناظرون. نعير هذه الصور كلماتنا بمحبة، نعيرها عيوننا لترى، وآذاننا لتسمع، وأرجلنا لتمشي، وأجسادنا لتلبس الأكفان. نحن ارتضينا أن نّقدم على حب جورج وعلي وعمر وطوني، الذين لا نعلم عنهم شيئاً. نحبّهم بشكل متساوٍ. لا نعرف عنهم شيئاً سوى صورهم وأسمائهم التي تشبه أسماءنا التيّ نسيناها. لا نعلم إن كان جورج قتل شقيق علي، وقد يكون علي اختطف والد جورج قبل شهرين من اختفائه. من يدري! ومن يدري، فقد يكونان صديقين من أعز الأصدقاء. إلا أننا في الأحوال كلها، وعندما تطرأ على بالنا هذه الأفكار نطردها من رؤوسنا كي نتفرغ لحبّهم جميعاً. نحبهم جميعاً إلى أن نصبح مسيحاً. وعندما نصبح المسيح، نكون أصبحنا هنا نحن الضحية. نحن نرتضي أن نكون الضحية، لا لضعفنا، بل لأن الضحية تنتصر إذا بنت خطابها قبل أن تصلب، كما وهي على الصليب. الضحية تنتصر عندما تجمع أحبّتها في العشاء الأخير، لتقول لهم من هم أعداؤهم ومن هم أحبتهم. الضحية تنتصر على الجاني، عندما تتحدى الجاني في أن يجرؤ على أن يجعلها ضحية. وقد يرضخ لطلبها، وقد لا يرضخ، وفي الحالين تكون منتصرة، عندها يتأثث خطابها على تضحياتها.

نحن الآتين إلى معبد الذاكرة هذا، ندخل إليه مترددين ونخرج منه ضحايا. فلتأتِ الحرب المقبلة، فقد عرفنا ماذا ينبغي لنا أن نكون. نضع أنفسنا في إطار، ونعلّق أنفسنا صوراً على حائط. وليُكتب فوق صورنا: "17356 مفقوداً"!

علي زراقط